يكون. فهو ينطلق ممّا اصطلح عليه الإنشائيون من تقسيم القصّة في أعمّ مظاهرها إلى خبر وخطاب. ولكنه إذ يشرع في التعليق على العنوان، يمهّد لتحليل بنية النصّ الشكليّة بمقدّمة قيّمة يُنزل فيها فنّ المقامة وطعامَ المضيرة في سياقهما الثقافي والحضاري مؤكّداً أن «لكلٍّ منهما في سجل الثقافة علامات يُعرف بها وهي سابقة في الذهن للتحليل». لذلك يستحضرها، على سبيل التمهيد، ريثما يلج صميمَ النصّ. ثم، وأثناء التحليل، يتطرّق إلى بلاغة الخطاب – وهي في صميم المقاربة الشكلية – فيخرج من النصّ إلى المجتمع، من البنية إلى الدلالة الاجتماعية. يقول:

«وبتشخيص الموصوفات على وجه الحقيقة تتشكّل ملامحُ مجتمع: «عمر الله بغداد فما أجود متاعها وأظرف صناعها» وهل كانت بغداد إلا باريس زمانها؟. إنه مجتمع الاستهلاك، أمس كاليوم، طغتْ عليه المصنوعاتُ حتى هيمن الشيءُ على الحيّ، واستعبد المتاعُ ربَّهُ المالكَ فراح يهذي به ويؤذي، إذْ للمضيرة، رمز الثروة، نشوةٌ وشناة. فوراء بريقها ظلماتٌ وفي نعيمها جحيم. لها ظاهر وباطن، ووجه وقفا. ظاهرها حضارة وباطنها توحش، ووجهُهَا آدابُ المؤاكلة وقفاها نهش السباع. فهي الشيء وضده».

إنّ تحليل الدلالة الاجتماعية أو الثقافية يعضد تحليلَ البنية الشكلية، فهما عملان متكاملان يساعدان على الاقتراب من وفرة النصّ، لأنّ النصّ هو الغاية. هكذا يتجاوز بكار حدودَ الإنشائية، ويستعين ببعض المفاهيم النقدية المستمدّة من البنيوية التكوينية ليغوص في أعماق تراثنا القصصي، وهو بذلك يتجاوز مرحلةَ التعريف بالمنهج إلى تقديم معرفة جديدة بنصوص هذا التراث.

***

لقد ساهم بكار في قراءة النصّ القصصي القديم من منظور بنيوي وخَلَقَ بتطبيقاته حركيةً في النقد العربي الحديث. ذلك أنه بتوظيفه للمناهج الحديثة توظيفاً بارعاً ساعده على تجديده قراءة تراثنا القصصي، قد فتح البابَ ورسم السبيلَ للنهوض بالنقد ولإعادة اكتشاف التراث في آن واحد. وهو ما نستشفّه من هذه الدعوة الضمنيّة التي وردت في تحليله لنصّ الجاحظ «كلام بكلام»: «وقد تحدّث نقّاد فرنسا كثيراً – ولهم الحقّ – عن عبقرية راسين في تصوير أهواء النفوس، ومن حقّنا أن نتحدّث قليلاً عن عبقرية الجاحظ في ذلك. فلنا من تراثنا الأدبيّ كنزٌ من النصوص لم نعرف قط كيف نجدّد لها القراءة. ولكن نقدهم نام ونقدنا لايزال مِثْلَنا في طريق النمو». فللأستاذ بكار فضلُ السَّبْق والريادة، كما أن له فضلَ الدعوة والتحسيس.

تونس

أبابيل

فريدة أبو سعدة

تتوامتُ والوطن الحلم
لكن سيفاً
تلبّسه الوهمُ
ضيّع ما كنز القلبُ
حين رمى بيننا وردةً
من ترابٍ ودمْ
فهل تحمل الآن أغربة البحر جثّة هذا النبيّ إلى اليمِّ
تلقي به حجراً صائحاً
يستدير ويخضرُّ كالبدر في ليلهِ
المدلهمْ
النبي الذي ضوّأته الدماءُ
وجلاّه بالكيِّ هذا القنوت
النبيّ الذي ائتمنته العصافيرُ
تنعس ما بين خصلاته في المساء الصموت
الذي يتلبّسه الجنُّ يفتنُّ في كل حينْ
فيأخذ شكل النخيل ويأخذ شكل الوعولِ
ويأخذ شكل الخيولِ ويأخذ شكل السيولِ

ويرشق وردته في الفصولِ
ويختال فوق السراطْ
تيمّن كانت ورودٌ وكانت نهودٌ وكان العبيدْ
تيسّر، كان الجحود وكان الصدور وكان الوعيدْ
النبيّ الذي كان يفرك في راحتيه الزمانَ كحبّةِ بنّ
هو الآن يصعد بين يد البدو للجلجلهْ
فتمشي على وقع أقدامه الزلزلهْ
ويمسحُ كالأب شعر المحيطينَ
(يقرأ للريح شِعر الطواسين)
يصعد مبتسماً
وجميلاً
كصبح وليدْ
سآمةُ قلبي من الزمن العربي الرديء
النبي الذي كان...
يمتلئ الآن بالرملِ والنملِ، ينبتُ في جلده الشوكُ
والعين هذي المرايا التي انكسرَتْ
لم يعد ممكناً أن تضيء
ولا ممكناً أن ترى في المدى غير هذا الرّدى
شاخصاً كالطيور الأبابيلِ
ليست تبيد
ولا ترحم القلب حين تجيءْ

القاهرة